1

الجزء الاول

# طفولة فى الريف

-١-

إن الشئ الوحيد الذى منحه لى والدى، بخلاف الحياة، والبنية القوية، والصلة الوثيقة بعائلة ثمبو الملكية هو توليهلاهلا، اسمى عند الميلاد. والمعنى الحرفى لاسمى هو «نزع فرع الشجرة» ولكن معناه الدارج هو المشاغب. ورغم أننى لا أومن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان لكن فى السنوات التى تلت صار الأصدقاء والأقرباء يَعزون الزوابع التى سببتها وواجهتها إلى اسمى. ولم أكتسب اسمى الإنجليزى المألوف حتى يوم التحقت بالمدرسة.

فقدُ وُلدتُ فى الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٩١٨ فى مڤيزو، وهى قرية صغيرة فى إقليم أومتاتا. وكانت سنَة مولدى قد وافقت نهاية الحرب العالمية. وانتشار وباء الإنفلونزا فى العالم وزيارة وفد المؤتمر القومى الإفريقى ڤرساى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب أفريقيا. وعلى أية حال فإن مڤيزو لبقعة صغيرة منعزلة عن عالم الأحداث حيث كان نمط الحياة قد استمر لمئات السنين.

ويقع إقليم الترانسكى على مسافة ثمانمائة ميل إلى الشرق من كيب

تاون وخمسين ميلا إلى الجنوب من جوهانسبرج ويحده نهر كى وحدود الناتال ومن الشمال جبال دراكنسبرج ومن الشرق المحيط الهندى. وترانسكى بلاد جميلة ذات جبال وأودية حصينة وآلاف من الأنهار والجداول التى تُبقى على اخضرار الأرض. وكان الترانسكى أحد أكبر الأقسام الإقليمية فى جنوب أفريقيا وهو فى مساحة سويسرا وتعداد سكانه حوالى الثلاثة ملايين ونصف من قبائل الإكسهوسا مع أقلية ضئيلة من قبيلة الباسوتوس والبيض. وهو موطن شعب الثيمبو أحد أفرع الإكسهوسا الذين أنتمى إليهم.

وكان والدى رئيسا بالنسَب وطبقا للتقاليد. فقد عمده ملك قبيلة الثيمبو رئيسا لمقيزو وصدّقت الحكومة على اختياره فى ظل الحكم البريطانى. وكان له -كرئيس معين من قبل الحكومة- راتب كما كانت له نسبة من الرسوم التى كانت الحكومة تفرضها على السكان نظير تطعيم المواشى.

وتنتسب الثيمبو من عشرين جيلا إلى الملك زويدى. وطبقا للتراث فقد عاش الثيمبو على سفوح جبال دراكنسبرج وهاجروا باتجاه الشاطئ فى القرن السادس عشر حيث امتزجوا بالإكسهوسا. أما الإكسهوسا

فهم جزء من شعب النجونى الذى عاش منذ القرن الحادى عشر على الأقل على القنص وصيد السمك فى الإقليم الجنوبى الشرقى الغنى المعتدل من جنوب أفريقيا بين الهضبة الكبيرة الواقعة إلى الشمال والمحيط الهندى إلى الجنوب. ويمكن تقسيم النجونى إلى مجموعة شمالية وهم الزولو والسوازى ومجموعة جنوبية تتكون من القبائل التى تتكون منها أمة الإكسهوسا.

وشعب الإكسهوسا ذو كبرياء ونسب أبوى ولغة معبرة عذبة وعقيدة ثابتة فى أهمية القانون والتعليم والكياسة. وكان مجتمع الإكسهوسا تنظيما اجتماعيا متوازنا يعرف فيه كل فرد مكانه. وينتمى كل إكسهوسا إلى عشيرة تتتبع نسبها إلى سلف معين. أما أنا فأحد أعضاء عشيرة الماديبا التى سُميت على اسم رئيس من الثيمبو حكم فى ترانسكى فى القرن الثامن عشر. وأحيانا كثيرة أُلقب بماديبا كدليل على الاحترام.

وكان نجو بنجكوكا أحد أعظم الملوك الذى وحّد الثيمبو وتوفى عام ١٨٣٢. وكانت لديه طبقا للعرف زوجات ينتمين إلى البيوت الملكية الرئيسية وهى البيت العظيم حيث يُنتقى وريث العرش، وبيت اليمين، وبيت أقل أهمية يدعى الإكسهيبا ويشار إليه أحيانا ببيت اليسار. وكانت مهمة أبناء بيت الإكسهيبا أن يحكموا فى المنازعات الملكية. وكان من بين أبناء البيت العظيم نجانجيلزوى وماتانزيما. أما ساباتا الذى حكم الثيمبو منذ عام ١٩٥٤ فقد كان حفيد نجانجيلزوى وابناً أكبر لماتانزيما الرئيس السابق لترانسكى وقد كان أيضا ابن أخى

طبقا للقانون والعرف الذى هو من سلالة ماتانزيما. وكان الابن الأكبر لبيت إكسهيبا هو سيماكادى الذى كان أخوه الأصغر ماندلا جدى.

ورغم توارد قصص على مدى عقدين من الزمن عن كونى سليلا لعرش ثيمبو فإن النسب الذى ذكرته يدحض تلك الأسطورة. فرغم كونى أحد أعضاء البيت الملكى فلم أكن ضمن القلة المدربة للحكم. ولكن كسليل لبيت إكسهيبا فقد دُربت كأبى على إسداء المشورة لحكام العشيرة.

وكان والدى رجلا أسمر طويلا ذا قوام مستقيم مهيب ورثتُه عنه. وكان سلوكه صارما لا يتورع عن استعمال العصا فى تربيته لأبنائه كما أنه كان عنيدا للغاية وتلك صفة قد أكون أيضا قد ورثتها.

وأحيانا كان يشار إلى والدى على أنه رئيس وزراء ثيمبو لاند أثناء حكم والد ساباتا الذى حكم فى أوائل القرن، وكذلك فى عهد ابنه الذى خلفه. لكن مسمى هذا اللقب غير صحيح رغم أن دوره كان لا يختلف عن مهام تلك الوظيفة فقد كان يرافقهما فى أسفارهما ويحضر معهما الاجتماعات الهامة مع مسئولى الحكومة. كما كان والدى قيِّماً معترفا به على تاريخ الإكسهوسا وكان هذا أصل اهتمامى أنا بالتاريخ ذلك الاهتمام الذى كان يشجعه والدى. ورغم جهل والدى بالقراءة والكتابة فقد كان خطيبا ممتازا يستحوذ على انتباه الجماهير.

وفيما بعد اكتشفت أن والدى كان أيضا صانعا للملوك. فقد توفى والد ساباتا وهو طفل وعند استشارة والدى أوصى باختيار وصى العرش

الذى سيكون قدوة للأمير الصغير. وثار جدل حول شخص الوصى لكن فى النهاية أخذ الثيمبو والبريطانيون باختيار والدى. وحينما حان الوقت رد الوصى جو تجينتابا الجميل بطريقة لم تخطر ببال والدى آنذاك.

وكان لوالدى أربع زوجات ثالثتهن هى أمى نوز/كينى/ فانى من عشيرة من عشائر الإكسهوسا. وكانت لكل من تلك الزوجات: الزوجة العظمى، والزوجة اليمنى (والدتى) والزوجة اليسرى وزوجة بيت الدعم، وحدتها السكنية، وتتألف من مكان للسكنى وحظيرة فسيحة وقطعة أرض لزراعة المحاصيل وكوخ له سقف من القش وكانت تفصل بين كل من تلك الوحدات أميال وكان والدى يسافر بينهما. وفى أثناء تلك السفريات صار لأبى ثلاثة عشر من الأولاد، أربعة ذكور وتسع أناث. أما أنا فالابن الأكبر لزوجة البيت الأيمن وأصغر أبناء أبى ولى ثلاث شقيقات وفيما عداى فجميع أبناء أبى فى عداد الموتى الآن وكان جميعهم أكبر منى سنا ومرتبة.

وحينما كنت طفلا صغيرا دخل أبى فى جدل نتج عنه حرمانه من الرئاسة فى مقيزو. كان والدى متمردا عنيدا ذا إصرار على العدالة وإحساس بها وقد ورثت ذلك عنه، فقد كان عليه كرئيس أن يقدم تقريرا عن عمله لملك الثيمبو وللقاضى الأبيض. وذات يوم قدّم أحد رعايا والدى شكوى ضده بسبب ثور كان قد شرد من صاحبه. وأرسل القاضى رسالة لوالدى يأمره فيها بالمثول أمامه وأرسل والدى ردا مفاده أنه لن يحضر لأنه مازال يستعد. وفى تلك الأيام لم يكن لفرد أن

يعصى أمرا لممثل حكومة البيض واعتبر تصرف والدى غاية فى الغطرسة.

لكن رد والدى كان يعبر عن عقيدته بأن ليس لقاضى الحكومة سلطة قانونية عليه. فإنه لم يكن يستعين بالقوانين الإنجليزية فى تصريف شئون القبيلة. ولم يكن ذلك التحدى نوبة غضب ولكنه كان مسألة مبدأ.

وحينما تلقى القاضى رد والدى اتهمه فورا بالعصيان ولم يُجرِ استجوابا أو تحقيقا فقد كان ذلك حقا للموظفين البيض فقط. وقام القاضى بعزل والدى ببساطة وأنهى بذلك رئاسة عائلة ماندیلا.

ولم أكن وقتها أدرى بتلك الأحداث ولكنى تأثرت بها. فقد فَقَدَ والدى، الذى كان من النبلاء بمقاييس ذلك الزمن، ثروته ولقبه. وقد حرم من معظم قطعانه وأرضه ومن ريعها. ونتيجة لعسر ظروفنا فقد رحلت أمى إلى قونو، وهى قرية أكبر قليلا إلى الشمال من مڤيزو حيث حظيت بدعم الأقارب والأصدقاء. وفى تلك القرية قُرب أومتاتا قضيت أيام صباى ومن هناك يمكننى استعادة أولى ذكرياتى.

-٢-

كانت قرية قونو تقع فى واد ضيق معشب تتخلله جداول الماء وتحيط به التلال الخضراء. وكان السكان بضع مئات يعيشون فى أكواخ مشكلة كخلايا النحل من جدران من الطين وعمود خشبى فى الوسط يسند سقفا مدببا من الأعشاب. وكانت الأرضيات مصنوعة من كثيبات بيوت مستعمرات النمل المجروشة وتحفظ ملساء بطلائها بروث البقر. أما

الفتحة الوحيدة فكانت مدخلا صغيرا كان على الإنسان أن ينحنى ليمر منه. ولم تكن هناك طرق، فقط كانت هناك ممرات بين الأعشاب داستها الأقدام العارية للصبية والنساء. وكانت نساء القرية وأطفالها يرتدون بطاطين مصبوغة بلون يميل للاصفرار ولم يكن يرتدى الملابس الغربية فى القرية سوى الأفراد الذين يدينون بالمسيحية. وكانت الماشية والأغنام والماعز والخيل ترعى فى مراع جماعية. أما الأرض نفسها فكانت ملكا للدولة وفيما عدا استثناءات قليلة فلم يكن للأفارقة فى ذلك الوقت حق ملكية الأرض ولكنهم كانوا مستأجرين يدفعون إيجارا سنويا للحكومة. وفى تلك المنطقة كانت هناك مدرستان ابتدائيتان وحانوت عام وبركة لتغطيس الماشية.

وكانت الذرة والفاصوليا والفول والقرع تكوّن الجزء الرئيسى من طعامنا ولم يكن ذلك لتفضيلنا إياها ولكن لأن الناس لم يكن بمتناولهم الحصول على أطعمة أخرى. أما العائلات الأكثر ثراء فكانت تضيف إلى ذلك الشاى والقهوة والسكر. أما المياه المستعملة فى الزراعة والطهو والغسيل فكانت النسوة ينقلنها من الجداول والينابيع. وفى الواقع فإن قونو كانت قرية نساء وأطفال لأن معظم الرجال كانوا يقضون الجزء الأكبر من العام يعملون فى مزارع بعيدة أو فى مناجم على طول الصخور جنوبى جوهانسبرج وكانوا يعودون إلى القرية أحيانا مرتين فى العام لحرث الحقول. أما بقية الأعباء فكان يُترك أمرها للنساء والأطفال. أفراد قليلون جدا فى القرية هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة لأن فكرة التعليم كانت ما تزال غريبة على

الأكثرية.

كانت أمى تشرف على ثلاثة أكواخ فى قونو كانت تعج دائما بالرضع والأطفال من الأقارب ولا أتذكر أية مناسبة كنت فيها وحيدا كطفل. ففى الحضارة الإفريقية يعتبر أبناء وبنات الخالات والأعمام إخوة وأخوات وليس لدينا إخوة وأخوات غير أشقاء وتعتبر أخت أمى أماً لى وابن خالى أو عمى أخا لى وطفل أخى طفلى.

كان أحد أكواخ أمى الثلاثة يستعمل للطبخ والآخر للنوم والثالث للخزين. ولم يكن بالكوخ الذى كنا ننام به أثاث بالمعنى الغربى فقد كنا ننام على حصير ونجلس على الأرض. وكانت أمى تطهو الطعام فى إناء ذى ثلاثة أرجل على نار مكشوفة داخل الكوخ أو بالخارج. وكانت تزرع وتحصد الذرة الخاصة بها. وكانت النساء يستعملن وسائل مختلفة لإعداد الذرة فكن يطحن الحبات بين رحايتين ليصنعن الخبز أو يستخرجن دقيق الذرة ليصنعن اللبن الرائب أو يطهون جريش الذرة. وعلى خلاف الذرة التى كانت تندر أحياناً فقد كان حليب الماعز والأبقار متوافرا دائماً.

وفى صغرى كنت أقضى معظم وقت فراغى فى المروج ألعب وأتعارك مع صبية القرية فقد كان الصبى الذى يقضى وقته ملتصقاً بأمه يُنظَر إليه على أنه مخنث. وفى الليل كنت أقتسم طعامى وبطانيتى مع أولئك الصبية. وعندما عملت بالرعى لم أكن قد تجاوزت الخامسة حيث كنت أسهر على الأغنام والعجول. وقد تعلمت وأنا أعمل فى الحقل الإيقاع

بالطيور بواسطة المقلاع وجمع عسل النحل والجذور التى تؤكل، وأن أرتشف الحليب الدافئ من ضروع الأبقار وأن أسبح فى القنوات الصافية وأن أصطاد السمك بواسطة الخيط المجدول بالأسلاك الحادة. كما تعلمت المبارزة بالعصى وتلك مهارة أساسية لكل فتى ريفى إفريقى.

وكنا كصبية نُترك لنفعل ما شئنا وكنا نلعب بدمى صنعناها من الطين وأغصان الأشجار. وكانت المروج والتلال ملعبنا. وتعلمت الركوب بالتسلق على ظهور العجول التى تم فطامها. وبعد أن سقطت عدة مرات تمرست فى العملية.

وذات يوم تلقيت درسا من حمار جامح، كنا نتبادل تسلق ظهره وحينما جاء دورى قفزت على ظهره فجمح الحمار باتجاه شجرة شوكية وألقى بى بعد أن خدشت وجرحت الأشواك وجهى وسبب لى الارتباك فى حضور أصدقائى. ورغم أن الفاعل كان حمارا تعلمت قسوة إهانة المرء لغيره. فقد كنت أهزم زملائى دون إشعارهم بالمهانة. وعادة كان الصبية يلعبون بمفردهم لكن أحياناً كنا نسمح لأخواتنا بمشاركتنا فى ألعاب مناسبة.

وبعد الانتهاء من تلك الألعاب كنت أعود للكوخ حيث كانت والدتى تقوم بتجهيز طعام العشاء. ومثل ما كان والدى يقص علىّ قصصا عن معارك تاريخية لمحاربى الإكسهوسا كانت والدتى تسحرنا بأساطير الإكسهوسا التراثية وكانت تلك الأساطير تثير مخيلة طفولتى وغالبا ما

احتوت على عبرة أخلاقية.

وكأطفال الإكسهوسا كنت أحصل على المعرفة عن طريق الملاحظة والمحاكاة وليس بتوجيه الأسئلة وكان الكبار يلقوننا المعلومات التى يرونها ضرورية.

وكانت حياتى وحياة معظم الإكسهوسا فى ذلك الوقت تشكلها الأعراف والطقوس والمحرمات. فالرجال كانوا يتبعون الطريق الذى حدده لهم آباؤهم أما النساء فقد عشن حياة أمهاتهن من قبل.

ولم أقابل سوى قليل من البيض فى قونو. فقد كان القاضى أبيض وكذلك بالطبع كان صاحب المتجر القريب. وكان يحدث أحيانا أن يمر مسافرون بيض أو أفراد شرطة عبر منطقتنا. وكان البيض يبدون لى فى عظمة الآلهة وكنت أعلم أنه يجب إبداء الخوف والاحترام إزاءهم.

وكانت المنافسة القبلية الوحيدة فى عالمنا الصغير فى قونو هى بين الإكسهوسا والأمفنجو الذين كان يعيش عدد صغير منهم فى قريتنا. وكان الأمفنجو قد وصلوا من الرأس الشرقى فى تلك الفترة ما بين ١٨٢٠-١٨٤٠ التى حاول خلالها محاربو الزولو غزو كل القبائل وتوحيدها تحت حكم عسكرى. وأجبر الأمفنجو -كلاجئين- على القيام بأعمال كان لا يقوم بها أفارقة كالعمل فى مزارع البيض ومتاجرهم. كما وكانوا قوما محبين للعمل، واصلتهم بالأوروبيين فقد أصبحوا أكثر تعليما وغربية من الأفارقة الآخرين.

وحينما كنت صبيا كانت منطقة الأمفنجو أكثر الأقسام تقدما فى

مجتمعنا، وكانت تمدنا برجال الدين والشرطة والكتبة والمترجمين، وكانوا من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية وبنوا بيوتا أفضل واستخدموا طرقا علمية فى الزراعة وكانوا برهانا على مقولة الإرساليات وهى أن تصبح مسيحيا فإنك تصبح متحضرا ولكى تكون متحضراً فعليك أن تكون مسيحيا. وكان هناك بين الإكسهوسا شعور بالعداوة ضد الأمفنجو أعتقد أن سببه الغيرة.

ولم يسهم والدى فى العداء ضد الأمفنجو بل صادق أخوين منهما هما جورج وبن مكبيللا وكانا استثناء فى قونو، حيث كانا متعلمين وكان جورج مدرسا متقاعدا أما بن فقد كان شرطيا. ورغم محاولات الأخوين مكبيللا فقد ظل والدى متباعدا عن المسيحية واحتفظ بعقيدة آبائه من الإكسهوسا. أما والدتى فقد وقعت تحت تأثيرهما واعتنقت المسيحية وأصبح اسمها الذى منحته إياها الكنيسة هو فانى. وأيضا يرجع تعميدى فى الكنيسة الميثودية إلى الأخوين. ومن ثم أُرْسِلْتُ إلى المدرسة رغم أن أحدا من عائلتى لم يتلق تعليما من ذلك النوع.

كان مبنى المدرسة يتكون من غرفة واحدة ذات سقف أوروبى، تقع على الجانب الآخر من التل من قريتى قونو. وكنت حينذاك فى السابعة. وفى ذلك اليوم انتحى بى والدى وأخبرنى بأن علىّ أن أرتدى الثياب المناسبة وأخذ أحد سراويله وقصه عند الركبتين وطلب منى أن أرتديه وفعلت. كان الطول مناسبا لكن الوسط كان متسعا جدا وأخذ والدى قطعة دوبارة وحزمنى بها عند الوسط وشعرت بالفخر وأنا أرتدى ثيابى تلك.

وفى أول يوم لى فى المدرسة أعطت المدرسة كل واحد منا اسماً إنجليزيا وأخبرتنا أنه من ذلك الحين فصاعدا سننادى به. وعموما فالأفارقة من جيلى وحتى فى يومنا هذا يحملون اسما إنجليزيا وآخر إفريقيا فلم يكن البيض يريدون أو يستطيعون نطق الأسماء الإفريقية وكانوا يعتبرونه تخلفا أن تحمل اسما وطنيا وقالت لى المدرسة فى ذلك اليوم إن اسمى الجديد هو نيلسون.

-٣-

وفى إحدى الليالى وحينما كنت فى التاسعة انتبهت لحركة فى المنزل فقد كان والدى قد جاء إلينا فى غير موعد وصوله المعتاد. ووجدته فى كوخ والدتى راقدا على ظهره على الأرض وقد انتابته نوبة من السعال المتصل. وكان من الواضح أن والدى لن يمكث طويلا فى هذا العالم فقد كان مريضا بالرئة لكنه لم يحدث أن زار طبيباً. ومكث فى الكوخ دون حركة أو كلام لعدة أيام. وفى إحدى الليالى ساءت حالته وكانت أمى وزوجته الصغرى نوديبيمانى -التى حضرت لتمكث معنا- ترعيانه. وفى ساعة متأخرة من الليل نادى على زوجته الصغرى وطلب منها أن تحضر تبغه وتشاورت الزوجتان وقررتا أنه من غير الحكمة أن يتعاطى التبغ فى مثل حالته ولكن أمام إصراره ملأت نوديبيمانى غليونه وأشعلته وناولته إياه. فدخن والدى وهدأ واستمر يدخن لمدة ساعة تقريباً ثم مات وغليونه مازال مشتعلاً.

لا أتذكر أن حزنى كان بمقدار شعورى بالضياع. فرغم أن والدتى

كانت مركز وجودى فإن معرفتى بذاتى كانت بنسبى إلى أبى. وقد غيرت وفاته حياتى كلها بطريقة لم أشك فيها فى ذلك الوقت. فبعد فترة الحداد أخبرتنى والدتى بأننى سأترك قونو ولم أسألها لماذا أو إلى أين أنا ذاهب.

قمت بحزم ممتلكاتى القليلة. وفى يوم ما فى الصباح الباكر اتجهنا إلى الغرب فى الطريق إلى سكنى الجديد. لم أشعر بالحزن لفقدان والدى مثل شعورى بالحزن على ذلك العالم الذى تركته. وقبل أن نختفى وراء التلال استدرت ونظرت إلى قريتى. ولم أستطع أن أتخيل أن المستقبل الذى كنت متجها إليه يمكن أن يقارن بذلك الماضى الذى تركته.

سافرنا على الأقدام فى صمت حتى بدأت الشمس تغيب. كانت رحلة مرهقة عبر طرق صخرية غير مرصوفة أعلى وأسفل تلال وعبر قرى عديدة، لكننا لم نتوقف. وقرب المساء وفى قاع واد ضحل تحوطه الأشجار حططنا فى قرية كبيرة يتوسطها مسكن متسع حسن المنظر يفوق أى شئ قد رأيته من قبل. كان المسكن يتكون من منزلين مستطيلين وسبعة أكواخ كبيرة كلها مطلية بالجير الأبيض وبدت مبهرة حتى فى ضوء الغروب. كانت هناك حديقة أمامية كبيرة وحقل ذرة تحده أشجار الخوخ. وكانت هناك حديقة أشد اتساعا فى الخلف بها أشجار تفاح وخضروات ومساحة من الزهور والسنط. وبالقرب كانت هناك كنيسة.

وفى ظل أشجار السنط التى كانت تزين المدخل الأمامى للمنزل الرئيسى جلست مجموعة من حوالى عشرين رئيسا قبليا. وكانت فى الضيعة قطعان من الماشية ترعى فى الأرض الغنية. كان منظر الثراء يفوق خيالى. وكان ذلك هو المكان العظيم - مفهيكيزويني، عاصمة ثمبولاند الإقليمية ومقر الرئيس جونجينتابا القائم بأعمال حاكم شعب ثمبو.

ودخلت سيارة مهولة من البوابة الغربية وقف على أثرها الرجال الجالسون فى الظل رافعين قبعاتهم وهم يهللون بالتحية التقليدية لشعب الإكسهوسا لرئيسهم «مرحبا جونجينتابا» ونزل من العربة رجل قصير متين يرتدى حلة أنيقة، وكان ذا حضور قوى تتطلع إليه كل الأعين. ثم صافح كل الرجال الذين كانوا تحت الشجرة والذين اكتشفت فيما بعد أنهم يكونون أعلى سلطة قانونية فى ثمبولاند.

كان ذلك هو الحاكم الذى سيصبح ولىُّ نعمتى للعقد القادم. فحتى تلك اللحظة لم يكن لدى طموح أكثر من الطعام الجيد وبطولة المبارزة بالعصى. لم تكن لى أفكار عن النقود أو الطبقات أو الشهرة والقوة. وفجأة فُتح عالم جديد أمامى وشعرت بأن كثيرا من معتقداتى وانتماءاتى الراسخة تتلاشى. وبدأت الأسس التى أرساها والدى فى الاهتزاز. وفى لحظة أدركت أن الحياة يمكن أن تنطوى بالنسبة لى على أشياء أكثر من أن أكون بطل مبارزة العصى.

وفيما بعد علمت أنه عقب وفاة أبى عرض جونجينتابا أن يكون

وصيا علىّ وأن يعاملنى معاملة أبنائه وأن أحصل على نفس مزاياهم. ولم يكن أمام والدتى خيار وكان رضاها مبعثه أنه رغم أنها ستفتقدنى فإن نشأتى فى رعاية الحاكم ستكون أفضل ولم يكن الحاكم قد نسى أن تدخل والدى لجعله وصيا هو الذى جعل منه رئيسا ذا سلطة عليا.

وبسرعة انغمست فى الحياة اليومية لمفهيقزوينى. فقد كانت بالنسبة لى مملكة سحر وكان كل شئ بهيجا وأصبحت الواجبات التى وجدتها مملة فى قونو مغامرة فى مفهيقزوينى. فبعد فراغى من المدرسة كنت أعمل فى الحرث أو الرعى وكنت أركب الخيل وأقتفى الطيور بالمقلاع وأبحث عن صبية أقارعهم وكنت أحيانا أرقص الليل بأكمله على نغمات وتصفيق فتيات الثمبو.

وانتظمت فى المدرسة ذات الحجرة الواحدة المجاورة للقصر وكنت أدرس الإنجليزية والإكسهوسا والتاريخ والجغرافيا. وقد لقيت اهتماماً من مدرسى وتفوقت نتيجة لانكبابى على الدراسة. وقد دعمت عمتى فانيوى التى كانت تعيش فى القصر النظام الذى فرضته على نفسى وكانت تراجع واجباتى المنزلية فى المساء.

وكما كان الحاكم محور الحياة فى مفهيقزوينى فقد كان ولداه محور حياتى. كان چاستيس ابنه الكبير الأوحد ووريثه وكانت نومافو ابنته. وقد عشت معهما وعُولت مثلهما. وفيما بعد انضم إلينا أخو ساباتا الأكبر ووريث العرش وكونا أربعتنا المجموعة الملكية.

كان چاستيس يكبرنى بأربع سنوات، وأصبح بطلى الأول بعد والدى. وكان وقتها تلميذاً فى مدرسة كلاركبرى الداخلية التى تبعد عن القرية ستين ميلا. وكان طويلا مليحا ذا عضلات ورياضيا ممتازا وكان بشوشا جريئا يسحر من حوله بغنائه ورقصه الغربى. وقد أصبحت وچاستيس صديقين حميمين رغم تعارض صفاتنا. ورغم أننا كنا نعامل كندين فقد كان لكل منا مستقبله فقد كان چاستيس وريث أحد الرئاسات القوية فى قبيلة الثمبو بينما كنت سأرث ما سيتفضل الحاكم به علىّ..

كنت أتواجد يوميا فى قصر الحاكم للقيام بأعباء معينة وكان أحب الواجبات إلىّ هى كَىْ حلل الحاكم فقد كنت أقضى الساعات الطويلة لأثنى له السراويل بإحكام.

وكان الذى سير حياتى فى مفهيقزويني هو رئاسة القبيلة والكنيسة. وقد تواجدت مبادئهما فى حياتى فى تناسق غير مستقر رغم أننى حينذاك لم أجد تنافرا بينهما فلم تكن المسيحية تمثل لى نظاما عقائديا بقدر كونها الدين الذى يدين به شخص معين وهو المقدس ماتيولو الذى كان حضوره القوى يمثل لى ما هو جذاب فى المسيحية وقد ترك أثرا روحانيا علىّ. لكن اهتمامات الكنيسة فقد شملت الآخرة وعالمنا الدنيوى وكنت أرى بنفسى أن ما من شئ يحققه الأفراد الأفارقة إلا ويأتى عن طريق الكنيسة وعمل الإرساليات بها. فقد كانت المدارس الإرسالية تدرب الكتبة والمترجمين ورجال الشرطة. وكان هؤلاء يمثلون أعلى طموحاتى.

وكان الحاكم يأخذ دينه مأخذ الجد. وفي الواقع فإن المرة الوحيدة التي جُلدت فيها كانت حينما تغيبت عن قدّاس الأحد لأشارك في مبارزة ضد بعض الصبية من قرية أخرى.

لقد تأثرت أفكاري عن الزعامة بعمق ملاحظتي للحاكم وبلاطه. فقد كنت أرقب وأتعلم من الاجتماعات القبلية التي كانت تعقد بانتظام في المكان العظيم. وكانت تُعقد كلما دعت الحاجة لمناقشة الأمور المحلية كالجفاف أو السياسات التي يأمر بها القاضي الأبيض أو القوانين الجديدة التي تسنها الحكومة وكان لكل شعب الشمبو حرية الحضور وكان يأتي عدد كبير على ظهور الخيل وسيرا على الأقدام.

وفي تلك المناسبات كان يحيط بالحاكم مجلس مستشاريه الذي كان يقوم بدور البرلمان والسلطة القانونية. وكانوا رجالا حكماء على معرفة بالتاريخ القبلي وكان لآرائهم ثقل كبير.

وكان الضيوف يجتمعون في فناء دار الحاكم الذي كان يفتتح الاجتماع بشكرهم لحضورهم ويوضح سبب استدعائهم ثم لايتفوه بكلمة أخرى حتى قرب نهاية الجلسة. وكانت تلك ديمقراطية في أصفى معانيها، فقد كان يتكلم كل من يريد ذلك وكان يُنصتُ إلى المتكلم سواء كان رئيسا أم فلاحاً أم أجيراً. وكان الناس يتكلمون دون مقاطعة، فقد كان أساس الحكم الذاتي حرية الجميع في التعبير عن آرائهم وتساويهم كمواطنين.

كانت الدهشة تتملكني في البداية لعنف الأفراد وصراحتهم في نقدهم

للحاكم وكان هو الهدف الأول للنقد ومهما كانت التهمة فإن الحاكم كان يستمع ولا يدافع عن نفسه.

وكانت الجلسات تستمر حتى يصل الحضور إلى نوع من الإجماع. وكان الإجماع أحيانا يكون على عدم الاتفاق لكى ينتظروا إلى وقت آخر ليقترحوا حلا. وكانت ديموقراطيتهم تعنى أن يُسمع كل فرد وأن يؤخذ القرار بواسطة الجميع وليس بالأغلبية.

وعند غروب الشمس كان الحاكم يتكلم ويلخص ما قيل ويشكل إجماعا من الآراء المختلفة.

وكقائد الآن فإنى أحاول دائما أن أتبع المبادئ التى رأيتها مبكرا تتمثل فى الحاكم فى «المكان العظيم». فإنى أحاول أن أستمع لما يقوله كل شخص فى أى نقاش قبل أن أغامر برأيى وغالبا ما يمثل رأيى إجماعا لما سمعته فى النقاش.

وهناك أيضا بدأ اهتمامى بالتاريخ الإفريقى. فإلى ذلك الحين كنت قد سمعت فقط عن أبطال الإكسهوسا لكن فى «المكان العظيم» تعلمت أن هناك أبطالا أفارقة آخرين وعرفت عنهم من رؤساء العشائر وقادتها الذين كانوا يأتون «للمكان العظيم» ليحسموا المنازعات أو يحكموا فى القضايا. وكانوا ينتهون مبكرا فى بعض الأيام ويجلسون يقصون الحكاوى وكانت قصصهم عن كفاح الأبطال والمحاربين الأفارقة ضد الغزاة والمستعمرين البيض تلهب خيالى وكان أحد هؤلاء الرؤساء يشجب الرجل الأبيض الذى شتت قبيلة الإكسهوسا عن قصد وأفهم

شعب الثمبو أن رئيسهم الحقيقي هو الملكة البيضاء التي تجلس وراء المحيط وأنهم رعاياها. لكن الملكة البيضاء لم تأت إلا بالتعاسة والغدر للرجل الأسود. وقد جعلتني قصص ذلك الرئيس وإدانته للبريطانيين أشعر بالغضب وبأنني قد خدعت. وكان يقول أيضا إن الأفارقة كانوا يعيشون في سلام نسبي حتى مقدم البيض عبر البحار ومعهم أسلحة ينبعث عنها اللهب. وفي إحدى المرات قال إن الثمبو والمبود والإكسهوسا والزولو كلهم نسل أب واحد، لكن الرجل الأبيض فرق ألفة القبائل المختلفة، وجاء شرهاً إلى الأرض وقاسم الرجل الأسود أرضه كما قاسمه الهواء والماء. فالأرض ليست ملكا لأحد لكن الرجل الأبيض اغتصب الأرض كلها.

لم أكن أعرف أن التاريخ الحقيقي لا يتواجد في الكتب البريطانية التي تدعي أن جنوب إفريقيا بدأت حينما رَسَى جان ڤان رايبيك في رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢. فقد بدأت أكتشف أن تاريخ الشعوب التي تتحدث بلغة البنتو بدأ من بقعة بعيدة في الشمال، وأنه ببطء وعبر آلاف السنين وجدنا طريقنا إلى حافة تلك القارة العظيمة. وعلى أية حال فقد اكتشفت ذلك من وصف الرئيس جويي للتاريخ الإفريقي وخاصة لفترة ما بعد عام ١٦٥٢ لم يكن دائما وصفاً دقيقاً.

-٤-

عندما بلغت السادسة عشرة قرر الحاكم أن الوقت قد حان لأصبح رجلاً. وفي عرف الإكسهوسا لا يتحقق ذلك إلا عن طريق الختان.

وطبقا للتقاليد فإن الرجل الذى لا تجرى له العملية لا يرث ثروة أبيه ولا يستطيع أن يتزوج أو أن يقوم على طقوس القبيلة ولا يُنظر إليه كرجل بل يظل صبيا. وتصحب عملية الختان طقوس معقدة تُعدُّ الفرد لمرحلة الرجولة.

وكانت المراسم التقليدية للختان قد أُعدّت أساسا من أجل چاستيس، أما الباقون وكان عددهم ستة وعشرين فكانوا هناك لمشاركته. وفى بداية السنة الجديدة توجهنا إلى كوخين من الأعشاب فى واد منعزل على ضفاف نهر مباشى وهى البقعة التقليدية لإجراء العملية لأبناء ملوك الثمبو. وكان علينا أن نعيش فى عزلة عن المجتمع. وكان من بين رفاقنا فتى هو أكثرنا ثراء وكان ذا شخصية آسرة. وكان رغم أميته يحكى قصصا عن رحلاته إلى جوهانسبرج وهو مكان لم يكن أحدنا قد رآه. وكانت قصصه عن المناجم مثيرة لدرجة أنه كاد يقنعنى بأن أصبح عامل مناجم قائلاً إن ذلك يتطلب أن تكون قويا وشجاعاً وتلك هى صفات الرجولة المثلى. وبعد ذلك تحققت أن قصصا كتلك قد جعلت شبابا كثيرا يهرب ليعمل بمناجم جوهانسبرج حيث كانوا يفقدون صحتهم وحياتهم.

وفى فجر اليوم المحدد بدأنا استعدادنا فاقتدنا إلى النهر لنستحم فى مائه وعند الظهر أمرنا بالاصطفاف على قطعة أرض قرب النهر حيث اجتمع لفيف من الآباء والأقرباء ومعهم حفنة من رؤساء القبائل. وكانت عملية الختان اختبارا فى الشجاعة وقوة التحمل ولم يكن يستخدم فيها مخدر وكان الذى يجرى العملية رجلاً عجوزاً خبيراً

يستعمل رمحه ليحولنا من صبية إلى رجال بضربة واحدة.

وفجأة سمعت الولد الأول يصيح «أنا رجل» تلك العبارة التى كنا قد دربنا على أن نقولها لحظة الختان. ولما جاء دورى رأيت الرجل راكعا أمامى. نظرت فى عينيه مباشرة. كان شاحبا ورغم برودة الجو فقد كان وجهه يلمع بالعرق. وتحركت يداه بسرعة وبدون كلمة قام بشد الجلد الأمامى وبحركة واحدة هبط رمحه. شعرت كأنما النيران تسرى فى أوردتى وكان الألم عظيما ومرت ثوان عدة قبل أن أتذكر أن أصيح ثم استعدت نفسى وصحت «أنا رجل» وعند نهاية المراسم عدنا إلى أكواخنا حيث مكثنا يومين وفى نهاية عزلتنا أُحرقت الأكواخ ومحتوياتها وهكذا دُمر آخر ما كان يربطنا بطفولتنا.

ثم أقيم احتفال كبير للترحيب بنا كرجال فى مجتمعنا. واجتمعت العائلات والأصدقاء والرؤساء المحليون ليلقوا الكلمات ويغنوا الأغانى ويقدموا الهدايا. وقد منحت أنا عجلا وأربعة أغنام أما چاستيس فقد منح قطيعا بأكمله فقد كان ابن ملك أما أنا فقد كان مُقدرا لى أن أصبح مستشاراً.

وجاء فى كلمة المتحدث الرئيسى وكان رئيس عشيرة قوله «لقد قمنا بختان زهرة شبابنا فى طقوس واعدة بالرجولة لكننى أقول لكم إنه وعد خداع، وعد لن يتحقق لأننا نحن الإكسهوسا والسود الأفارقة شعب مهزوم. إننا عبيد فى أرضنا. إن بين هؤلاء الشباب رؤساء لن يحكموا لأنه ليست لدينا القدرة على أن نحكم أنفسنا، وجنودا لن

يحاربوا وطلبة علم لا يوجد مكان لهم يدرسون به. إن قدرتهم ستضيع هباء فى محاولتهم أن يرتزقوا ما يكفى لعيشهم بقيامهم بأعباء لا تتطلب ذكاء فى خدمة الرجل الأبيض. إن تلك الهدايا ليست لها قيمة لأننا لا نستطيع أن نهبهم أعظم هدية وهى الحرية والاستقلال».

وشعرت بالغضب لما قاله الرئيس رافضا ملاحظاته على أنها تعليقات مهينة من شخص جاهل لا يستطيع أن يقدر قيمة التعليم والمزايا التى أتى بها الرجل الأبيض. فقد كنت حينذاك أنظر للرجل الأبيض على أنه صاحب فضل واعتقدت أن الرئيس جد جاحد. ولكن -ودون أن أدرى سببا- بدأت كلماته تشغلنى.. لقد ألقى بالبذرة التى رغم أنها ظلت نائمة لوقت طويل، أخذت تنمو فى آخر الأمر. وحينذاك تحققت أن الجاهل لم يكن الرئيس بل أنا.

-٥-

لم يكن مقدرا لى مثل معظم الفريق الذى تم ختانه معى أن ألتحق بالعمل فى مناجم الذهب. وكثيرا ما قال لى الحاكم إنه لا يناسبنى أن أقضى حياتى أستخرج ذهبا للرجل الأبيض دون أن أتعلم حتى كتابة اسمى. فقد كان مقدرا لى أن أصبح مستشارا لساباتا وكان لا بد أن أتلقى التعليم المناسب لذلك. وهكذا عدت إلى مفهيقزويني بعد الاحتفال لأمكث فترة أعبر بعدها نهر مباشى لأول مرة فى حياتى فى طريقى إلى معهد كلاركبرى الداخلى. وقد قام الحاكم بنفسه بتوصيلى بسيارته المهيبة. وكان قد أهداتى أول زوج لى من الأحذية كعلامة

للرجولة. وكان المعهد يقع فى موقع إحدى الإرساليات فى ترانسكى وقد أسس فى عام ١٨٢٥. وكان فى ذلك الوقت أعلى مؤسسة تعليمية فى ثمبولاند وكان الحاكم نفسه قد تلقى تعليمه به وتبعه چاستيس. كان مدرسة ثانوية ومعهدا لإعداد للمعلمين فى الوقت نفسه وكان يقدم بعض الدراسات العملية كالنجارة والتفصيل والحدادة.

لم تكن لى خبرة فى التعامل مع البيض وفى أثناء الرحلة كلمنى الحاكم عن المبجل هاريس مدير المعهد وأعطانى محاضرة عن كيفية التعامل معه قائلاً إننى يجب أن أعامله بنفس الاحترام الذى أعامله هو به.

وكانت المدرسة تتكون من حوالى أربعة وعشرين مبنى من طراز مبانى المستعمرات وكانت تحوى مساكن خاصة والقسم الداخلى والمكتبة وقاعات الدراسة.

وفى مكتب المبجل هاريس قدمنى الحاكم حيث وقفت أصافح رجلاً أبيض لأول مرة فى حياتى. وكان السيد هاريس ودودا وكان يعامل الحاكم باحترام كبير. وقد بيَّن له الحاكم أننى أعدّ لأكون مستشارا للملك وأنه يأمل أن يشملنى باهتمام خاص. وهنا أومأ المدير قائلاً إن طلبة المعهد عليهم أن يقوموا بأعمال يدوية بعد ساعات الدراسة وأنه سيجعلنى أعمل فى حديقته الخاصة.

وبعد انتهاء المقابلة ودعنى الحاكم وأعطانى جنيها كمصروف لى وكان أكبر مبلغ أمتلكه.

وبما أن كلاركبرى كانت معهدا للتمبو أنشئت على أرض منحها ملك عظيم للتمبو فقد توقعت كأحد سلالته أن ألقى نفس الاحترام الذى كنت ألقاه فى مفهيقزويني. ولكن أحداً لم يعرف أو يهتم أن يعرف تلك الحقيقة فقد كان كثير من الطلبة من سلالات مرموقة. وكان هذا درسا مهما فقد تبينت سريعا أن علىَّ أن أبدأ شق طريقى معتمداً على قدراتى وليس على إرثى وكان معظم زملائى متفوقين علىَّ رياضيا وعلميا وكان علىَّ أن ألحق بهم.

وسرعان ما تأقلمت مع الحياة فى كلاركبرى وشاركت فى النشاط الرياضى والألعاب لكن أدائى كان أقل من العادى. ولأول مرة تلقيت العلم على أيدى مدرسين مدربين، كان العديد منهم يحمل درجات جامعية رغم ندرة ذلك حينذاك. وكان من بينهم مدرسة التاريخ والإنجليزية وكانت أول إفريقية تنال درجة الليسانس.

وكان المبجل هاريس يدير كلاركبرى بيد من حديد وحس صارم بالعدالة. وكان الطلبة يبدون نحوه الخوف أكثر من الحب. لكن فى الحقيقة رأيت جانبا مختلفا من شخصيته فقد كان خلف قناع شدته فرداً رقيقاً ذا عقلية واسعة. وكان يؤمن بحرارة بأهمية تعليم شباب الأفارقة. وكنت نادرا ما أتحدث إليه ولكنه كان قدوة لى فى التفانى من أجل هدف نبيل.

وبعد بداية غير مرموقة تمكنت من فهم الأمور وأسرعت فى الدراسة لأحصل على الشهادة العلمية الأولى فى عامين بدلا من الثلاثة

المعتادة. وكنت طالبا دعوياً. وساعد الوقت الذى قضيته فى كلاركبرى على توسعة أفقى ولكننى لا أستطيع القول إننى حينما تركت المعهد كنت شخصا متفتحا غير منحاز. فقد كنت قد التقيت بعدد من الطلبة من جميع أنحاء ترانسكى ومن جوهانسبرج وباستولاند وكان بعضهم مصقولا ومنفتحا على العالم بدرجة جعلتنى أشعر بإقليميتى. لكننى لم أحقد عليهم. فحينما تركت كلاركبرى كنت مازلت ثبوياً فى أعماقى وكنت فخورا أن أفكر وأتصرف من ذلك المنطلق. فقد اعتقدت أن جنوى هى قَدرى وأننى سوف أصبح مستشارا لملك الثمبو كما أرادنى الوصى علىّ.

-٦-

وفى عام ١٩٣٧ وعندما كنت فى الثامنة عشرة لحقت بچاستيس فى هيلدتاون، الكلية الإرسالية فى فورت بوفورت التى كانت فى القرن التاسع عشر إحدى نقط الحدود الأمامية البريطانية فيما كان يسمى بحرب الحدود التى إبانها كانت هجمات المستوطنين البيض تنتزع الأراضى من قبائل الإكسهوسا. وعند وصولى إلى هيلدتاون لم تكن هناك من معالم القرن السابق سوى أن بوفورت قد أصبحت مدينة للبيض. كانت هيلدتاون أكبر مدرسة للإفريقيين جنوب خط الاستواء وتحوى أكثر من عشرة آلاف طالب من الجنسين وكان يدرس بها العلوم المسيحية الإنسانية على النمط الإنجليزى.

كان الدكتور أرثر ويلنجتون مدير المدرسة رجلا متين البنية متجهم

الوجه يفخر بنسبه إلى دوق ويلنجتون. وفى بداية الاجتماعات كان يصعد المسرح ويقول بصوت جهير «إنى من سلالة دوق ويلنجتون العظيم رجل الدولة وقائد الجيش الأرستقراطى الذى هزم نابليون وأنقذ الحضارة لأوروبا ولكم أيها الوطنيون».

وعندها كنا نصفق بحماس وكل منا ممتن امتنانا عظيما أن يأخذ حفيد لدوق ويلنجتون على عاتقه تعليم أفارقة مثلنا. كان الرجل المتعلم الإنجليزى هو مثلنا وكان كل ما نتطلع إليه هو أن نكون «إنجليزا سودا» كما كنا نلقب بسخرية. كنا نعتقد أن أفضل الأفكار هى الأفكار الإنجليزية وأن أفضل الحكومات هى الحكومة الإنجليزية وأن أفضل الرجال هم الإنجليز.

وكانت هيلدتاون تجتذب طلبة من جميع نواحى البلاد ومن المحميات مثل باسوتولاند وسوازيلاند وبتشوالاند. كما كان هناك طلبة من جميع القبائل. وكان معلم علم الحيوان.. فرانك لبنتيل يتحدث بلهجة السوثو أيضا وذا شعبية كبيرة بين الطلبة- كان حديث السن جذابا ويختلط دون حرج بالطلبة كما كان من نجوم فريق كرة القدم. ولكن ما أدهشنا هو أنه كان متزوجا من فتاة من الإكسهوسا. وكنا قد تعلمنا أن الزواج خارج القبيلة محرم ولكن تجربة المدرس فرانك، وزوجته بدأت تقوض النزعة القبلية المسجونة داخلى وبدأت أحس بذاتى كإفريقى وليس فقط كثمبو أو إكسهوسا.

وكان المشرف على قسمى بالسكن الداخلى هو المبجل موكيتيمى

والذى كان عليه أن يفصل أحيانا فى المنازعات. ولكنه كان الإفريقى الوحيد الذى يتحدى د. ولنجتون بأدب ويرفض تدخله المباشر فى شئون عمله. وجعلنى ذلك أقتنع بأن د. ولنجتون لم يكن إلها وأن موكيتيمى أكبر من أن يكون مجرد تابع.

وفى الكلية تمتعت بممارسة الرياضة وبما أننى كنت طويلا ونحيفا فقد تدربت على رياضة جرى المسافات الطويلة بجدية ومتعة. كما تدربت على رياضة أخرى لم تكن تناسب بنيتى فى ذلك الوقت وهى الملاكمة.

وفى السنة الثانية أصبحت من طلبة حفظ النظام وتدرجت حتى وصلت إلى المناوبات الليلية وكان أن وجدت نفسى فى إحدى المناوبات فى مأزق أخلاقى. فلم يكن لدينا مرحاض فى أماكن النوم لكن كان هناك واحد خلف المبنى على بعد حوالى مائة قدم. وكان يحدث أثناء الليالى المطرة أن يتبول الطلبة من الشرفة وسط الشجيرات وكان ذلك مخالفة كبيرة وكانت إحدى مهام المشرف الليلى تسجيل أسماء المخالفين.

وفى إحدى ليالى مناوبتى -وكان المطر شديدا فى الخارج- ضبطت عددا من الطلبة يرتكبون ذلك العمل. وقرب الفجر رأيت شخصا يخرج وينظر يمينا ويسارا ثم يقف فى الشرفة ليتبول. فذهبت إليه وعندما استدار عرفت أنه أحد المشرفين. كان ذلك مأزقا. ورأيت أنه من غير العدالة أن أتحاشى الإبلاغ عن مشرف وأبلغ عن خمسة عشر طالبا. وعليه فقد قمت بتمزيق القائمة.

وفى السنة الأخيرة فى هيلدتاون وقعت حادثة كانت بالنسبة لى

كمرور نيزك عبر سماء الليل. فقرب نهاية العام أُخبرنا أن شاعر الإكسهوسا العظيم مفهابى سيزور المدرسة. وكان مداحا أو مؤرخا شفاهيا ينظم الأحداث التاريخية المعاصرة فى قصائد. وأُعلن اليوم إجازة للجميع واجتمعنا بما فينا هيئة التدريس من البيض والسود فى قاعة الطعام حيث كان فى نهايتها مسرح فى آخره باب يفضى إلى منزل د. ولنجتون ولم يكن يستعمله إنسان غيره. وفجأة فتح الباب وكان من ظهر من خلاله ليس د. ولنجتون ولكن رجلا أسود يرتدى جلد فهد وقبعة مماثلة ويحمل حربة فى كل من يديه. ثم تبعه د. ولنجتون. من الصعب وصف أثر ذلك علينا فكأننا والكون انقلب رأسا على عقب. وبينما جلس مفهابى على المسرح إلى جانب د. ولنجتون كان من الصعب احتواء انفعالنا. ونهض مفهابى وبدأ كلامه الذى لم أجده مؤثرا فى البداية. وعند نقطة معينة رفع حربته فى الهواء لتأكيد ما يقول فضربت الحربة سلك الستار بالخطأ مما أحدث جلبة حادة وسبب تحريك الستار. وهنا نظر الشاعر إلى حربته وإلى السلك وفى تفكير عميق أخذ يغدو ويروح على المسرح ثم توقف وواجهنا صائحا إن تلك الحادثة -الحربة وهى تقرع السلك- تمثل تصارع الحضارة الإفريقية والأوربية. وارتفعت عقيرته قائلا إن الحربة تمثل ما هو مجيد وحقيقى فى التاريخ الإفريقى وأنها ترمز للمحارب والفنان الإفريقى بينما السلك الأبيض يمثل الصنعة الأوروبية، مهارة باردة وحذق بدون روح وأن ما حدث ليست ملامسة قطعة من العظام لقطعة من المعدن ولا تداخل حضارتين بل

اصطدام ما هو أصلى وخير وما هو دخيل وشرير وتنبأ بيوم تُحقق فيه القوى الإفريقية انتصارا على الدخلاء.

وكنت لا أكاد أصدق تلك الجرأة فى الحديث فى حضور د. ولنجتون وآخرين بيض. وفى الوقت نفسه استثار الشاعر حماسنا وبدأ فى تغيير مفاهيمى عن أشخاص مثل د. ولنجتون الذى كنت قد اعتبرته تلقائيا صاحب فضل علىّ.

ثم بدأ مفهابى فى إلقاء قصيدته المشهورة التى يُقسِّم فيها نجوم السماء بين شعوب الأرض. ثم فجأة توقف عن الحركة وخفض صوته وقال:

«والآن إليكم يا شعب الإكسهوسا» ثم أخذ ينخفض بجسده حتى ارتكز على ركبتيه وأضاف «إنى أمنحكم نجم الصباح لأنكم قوم نوو كبرياء وقوة. إنه النجم الذى تُحْسَب به السنون. نجم الرجولة». وحينما نطق الكلمات الأخيرة أحنى رأسه على صدره ونهضنا نحن مصفقين مهللين. وشعرت بفخر عميق ليس كإفريقى بل كإكسهوسا ينتمى إلى شعب مختار.

هزنى أداء مفهابى لكنه أيضا أربكنى فقد مضى من موضوع قومى شامل يمس الوحدة الإفريقية إلى آخر ضيق يخاطب به شعب الإكسهوسا. وكنت قد بدأت أرى أن لدى الأفارقة من جميع القبائل ما يشتركون فيه لكن ها هو مفهابى العظيم وقد وقف يثنى على الإكسهوسا فوق الجميع. كنت أيضا أرى أن الإفريقى يمكن أن

يتصدى للرجل الأبيض ولكننى كنت أرى مصلحتى مع البيض وكان ذلك يتطلب خضوعا فى أحيان كثيرة. وحينما غادرت هيلدتاون فى نهاية العام كنت أفكر فى نفسى كإكسهوسا أولا وكإفريقى ثانيا.

-٧-

وفى عام ١٩٦٠ كانت كلية فورت هير الجامعية الواقعة فى إقليم أليس المكان الوحيد للدراسة الجامعية المنتظمة للسود فى جنوب إفريقيا وكانت أيضا المنارة للدارسين الإفريقيين من جميع أنحاء جنوب ووسط وشرق إفريقيا. وقد كان الحاكم يريدنى أن ألتحق بفورت هير وشعرت بالامتنان حينما قُبِلتُ هناك وكنت حينها فى الحادية والعشرين من عمرى.

وكانت فورت هير قد أسستها الإرسالية الإسكتلندية فى مكان ما قد كان أكبر القلاع فى الجزء الشرقى من الكيب وكانت الجامعة تضم مائة وخمسين طالبا فقط وكانت هناك مجموعة ممن كانوا فى كلاركبرى وهيلدتاون. ورغم أن تلك المعاهد التى درست فيها تُنْتَقد كثيرا لكونها استعمارية فى اتجاهاتها وممارساتها لكن بالرغم من ذلك فإننى أعتقد أن فائدتها كانت تفوق ضررها. فقد بنى الإرساليون تلك المعاهد وأداروها حين كانت الحكومة لا تريد ذلك. وكانت البيئة التعليمية رغم جمودها الأخلاقى أكثر تفتحا من المبادئ العنصرية التى كانت تؤسس عليها المدارس الحكومية. وكانت فورت هير معمل تفريخ بعض أفضل المثقفين الذين عرفتهم إفريقيا. وأذكر أننى كنت

مسافرا يوما من فورت هير إلى أومتاتا بالقطار فى المقصورة المخصصة للأفارقة وجاء الكمسارى الأبيض لفحص التذاكر وحينما رأى أننى قد ركبت من أليس سألنى إن كنت من جامعة جاباڤو فأومأت بالإيجاب. وكان جاباڤو أستاذا إفريقيا فى فورت هير تخرج فى جامعة لندن وكان واسع الاطلاع فى تخصصات عدة وخصوصا فى الأنثربولوجى والتاريخ وأنساب الإكسهوسا وكان متحدثا مقنعا ورأس مؤتمر «كل الإفريقيين» عام ١٩٣٦.

وكان تعليمى فى فورت هير داخل وخارج قاعات الدراسة. فقد اشتركت فى النشاطات الرياضية وخاصة كرة القدم وجرى المسافات الطويلة. وعلمنى الجرى درسا هاما أى أنه من الممكن للفرد أن يعوض عن الاستعداد الفطرى بالاجتهاد والتنظيم وقد طبقت هذا فى كل شئ تعلمته. كما أننى التحقت بجمعية المسرح واشتركت فى تمثيل مسرحية وأيضا تعلمت مع الطلبة فن الرقص الغربى.

وكانت الحياة الاجتماعية والعقلية فى فورت هير تتسم بمستوى من الرفعة غريبا وجديدا علىَّ. وهناك ولأول مرة ارتديت البيجاما واستعملت فرشة الأسنان والمعجون بدلا من استعمال الرماد والخلال كما كنا نفعل فى قريتنا. وكانت المراحيض ذات الصرف الصحى و الحمامات ذات الأشاش الساخنة أشياء جديدة بالنسبة لى.

ورغم أن فورت هير كانت منعزلة عن العالم فقد كنا مهتمين بشدة بتطورات الحرب العالمية الثانية. وكنت أؤيد بريطانيا بحرارة. وكان

حماسى شديدا حينما علمت أن المتحدث الأول فى حفل التخرج فى الجامعة عند نهاية سنتى الأولى هو المؤيد الأول لإنجلترا فى جنوب إفريقيا وهو رئيس الوزراء السابق جون سماتس السياسى نو الشهرة العالمية وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء يقوم بحملة لكى تعلن جنوب إفريقيا الحرب على ألمانيا. بينما كان رئيس الوزراء هيرتزوج قد أعلن الحياد. وفى الحفل تكلم سماتس عن أهمية مساندة بريطانيا العظمى ضد الألمان وعن تمثيل بريطانيا للقيم الغربية التى تعتنقها جنوب إفريقيا. وقد صفقت له وزملائى بحرارة لدعوته لخوض معركة لتحرير أوروبا ناسين أننا لم نكن نملك الحرية فى أرضنا.

وكنا فى المساء نتجمع حول المذياع لسماع خطب تشرشل المثيرة. ورغم تأييدنا لموقف سماتس فقد أثارت زيارته كثيرا من المناقشات واتهمه نياثى خونجيسا فى إحدى المناقشات بالعنصرية قائلا إننا ربما نعتبر أنفسنا إنجليزاً سودا ولكن الإنجليز اضطهدونا ثم أضاف أنه مهما كان العداء بين البوير والإنجليزا فإن المجموعتين بيض وسيتحدان لمواجهة الخطر الأسود. وقد صدمتنا آراء خونجيسا تلك واعتبرناها راديكالية خطيرة وهنا همس زميل لى بأن خونجيسا عضو فى المؤتمر الوطنى الإفريقى وهى منظمة كنت قد سمعت عنها بطريقة مبهمة.

وفى أثناء السنة الثانية فى فورت هير دعوت صديقى بول ماهابانى لقضاء إجازة الشتاء معى فى ترانسكى وكان بول معروفا فى فورت هير لأن أباه كان الرئيس العام للمؤتمر العام للمؤتمر الوطنى

الإفريقى مرتين. وكانت صلته بتلك المنظمة قد جعلته يعرف بأنه ثائر.

وذات مرة خلال العطلة ذهبت معه إلى أومتاتا عاصمة ترانسكى وبينما كنا ننتظر خارج مبنى البريد طلب قاضى المدينة الأبيض وكان رجلا فى الستينات من بول أن يشترى له بعض الطوابع. فقد كان عاديا أن يطلب أى فرد أبيض من أى أسود القيام بأية مهمة وحاول القاضى أن يعطى بول النقود ولكنه رفض وشعر القاضى بالإهانة وسأله إن كان يعرف من هو فرد بول قائلا إنه يعرف من هو فسأله القاضى عما يعنى فقال له إنه يعنى أنه وغد. وكان غضب القاضى شديدا وانصرف وهو يتوعده.

شعرت بعدم الارتياح لتصرف بول.. فرغم احترامى لشجاعته فقد وجدتها مربكة ولو كان القاضى قد توجه بطلبه إلىّ لكنت قد قمت به على الفور. ولكننى أيضا بدأت أفهم أنه ليس على الأسود أن يتقبل كل الإهانات التى توجه إليه.

وعدت بعد الإجازة وكلى شعور بالقوة وركزت على دراستى متخيلا أننى سأحصل على درجة الليسانس خلال سنة واعتقدت أن الدرجة الجامعية هى جواز المرور إلى المراكز القيادية فى المجتمع وإلى النجاح المادى وأننى سيمكننى أن أرد لوالدتى الثروة والمكانة التى فقدتهما بموت والدى.

وفى أثناء السنة تم ترشيحى فى انتخابات مجلس الطلبة. وكانت الانتخابات تجرى فى الفصل الدراسى الأخير من السنة. وطبقا

لدستور فورت هير فإن جميع الطلبة كانوا يقومون بانتخاب الأعضاء الستة. وقبل الانتخابات بقليل عقد اجتماع لجميع الطلبة لمناقشة المشاكل والحديث عن المظالم وأجمع الطلبة على سوء الوجبات الغذائية وطلبوا زيادة سلطات مجلس الطلبة ووافقت على الاقتراحين وحينما قرر الطلبة مقاطعة الانتخابات إلا إذا وافقت السلطات على مطالبهم صوت معهم.

وبعد الاجتماع بقليل بدأ التصويت الرسمى للانتخابات وقاطعها معظم الطلبة عدا خمسة وعشرين طالباً انتخبوا الستة المرشحين الذين قرروا تقديم استقالاتهم.

ولكن المدير د. كير كان حاذقا فقد قبل استقالاتنا وأعلن أن انتخابات جديدة ستجرى فى اليوم التالى فى قاعة الطعام وقت العشاء فقد كان ذلك يكفل تواجد جميع الطلبة. ولكنه حينما أجريت الانتخابات لم يصوت سوى خمسة وعشرين طالباً منتخبين نفس الأعضاء الستة. وتمسك زملائى الخمسة بحرفية الرأى الذى يقول إنه قد تم انتخابنا فى حضور جميع الطلبة وعليه فإننا نمثلهم جميعا ولكننى عارضتهم قائلاً إنه من الناحية الأخلاقية فإن القول بأننا نمثلهم باطل واستقلت للمرة الثانية.

وفى اليوم التالى استدعيت إلى مكتب المدير الذى كان أيضا المؤسس الفعلى للجامعة وكان يتمتع باحترام كبير. وناقشنى د. كير فى الموضوع وأصررت على موقفى ونصحنى بأن أفكر وأعطيه ردى

الأخير فى اليوم التالى. وقال إننى إذا أصررت على استقالتى فسيجد نفسه مجبرا على فصلى من الجامعة.

قضيت الليلة مسهدا فلم يحدث أننى كنت قد اتخذت قرارا مصيريا من قبل. وكنت مترددا بين أن أضحى بحياتى العملية من أجل مبدأ مجرد وبين أن أضحى بالتزامى لزملائى من أجل اهتمامات أنانية.

وحينما سألنى فى اليوم التالى أجبته بأننى لا أستطيع أن أقبل العضوية بضمير مستريح وهنا بدا عليه الاندهاش. وبعد تفكير قرر أن يمنحنى فرصة إجازة الصيف للتفكير. وبينما قدرت موقفه ورغبته فى أن يمنحنى فرصة أخرى ساءنى تحكمه المطلق فى قدرى فقد رأيت أن من حقى أن أستقيل وألهبنى الشعور بالظلم وبدأت أرى د. كير ليس كرجل ذى فضل ولكن كشخص مستبد تعوزه الطيبة.

-٨-

وحينما عدت إلى مفهيقزوينى بعد نجاحى أبلغت الحاكم بما حدث الأمر الذى سبب شديد غضبه ورأى موقفى ضرباً من الجنون وأمرنى بأن أطيع أوامر العميد وأن أعود إلى فورت هير. وكان چاستيس الذى كان يعيش فى كيب تاون بعد أن انتهى من دراسته قد عاد فى إجازة.

وذات يوم استدعانا الحاكم وقال لنا إنه رأى أن يزوجنا وإنه قد اختار فتاتين من أسرتين طيبتين وأنه قد تم دفع ثمن العروسين. وتركت أنا وچاستيس الاجتماع مشدوهين مكتئبين. وفى ذلك الوقت كان حسى الاجتماعى أكثر نموا من حسى السياسى فبينما لم أكن مستعدا أن

أحارب النظام السياسى للرجل الأبيض كنت على استعداد للثورة ضد النظام الاجتماعى لقومى ورفضت أن يختار أحد لى عروسا ولو كان الحاكم نفسه.

ورفض الحاكم تغيير رأيه ووجدت أن لا خيار لى إذ إننى كنت لا أستطيع البقاء فى حمى الحاكم إن رفضت رأيه. اتفقت وچاستيس على الهرب إلى جوهانسبرج. وكان الحاكم يستعد للسفر ليحضر دورة المجلس التشريعى فى ترانسكى وقررنا الهرب بعد سفره. ولم يكن معنا نقود فذهبنا إلى مشتر وعرضنا عليه شراء اثنين من أفضل ثيران الحاكم واعتقد الرجل أننا نفعل ذلك بناء على طلبه فأعطانا ثمنا طيبا استأجرنا ببعضه سيارة لتوصلنا إلى محطة القطار الإقليمية لكن الحاكم كان قد استبقنا وأخبر المدير بأن يرفض أن يبيعنا تذاكر وكانت تلك هى الإجابة التى تلقيناها فى المحطة فأسرعنا إلى السيارة وطلبنا من السائق توصيلنا للمحطة التالية وتمكنا أن نستقل القطار لكن فقط إلى كوينز تاون. ففى الأربعينات كان السفر معقدا للأفارقة فقد كان عليهم أن يحملوا تصاريح مرور يبرزونها عند الطلب وكان تجاهل التصريح يعنى المحاكمة والسجن أو الغرامة وكان التصريح ينص على محل السكن واسم رئيس القبيلة بالإضافة إلى جميع التفاصيل عن حامله وبوقعه صاحب العمل.

ورغم أنه كان لدىَّ وچاستيس تصاريح صحيحة إلا أننا كأفارقة كان علينا أن نحصل على وثيقة سفر وخطاب من صاحب العمل أو الوصى علينا لكى نغادر الإقليم وفشلت محاولاتنا مع المسئولين نظرا لتدخل

الحاكم المفاجئ. وتذكر چاستيس أن له صديقا يعمل فى مكتب محام وذهبنا إليه وعرضنا عليه الأمر فأخبرنا بأن والدة المحامى ستذهب بالسيارة إلى جوهانسبرج. ودفعنا لها مبلغ ثلاثين جنيها لتوصيلنا وقضى هذا المبلغ على معظم ما معنا من نقود.